الأوبئة والأمراض وأثرها على الحياة العامة في فلسطين منذ العصر الراشدي وحتى الآونة الأخيرة (17هـ/639م-1442هـ/ 2020م)

Epidemics and diseases and their impact on public life in Palestine from the Rashidun era until now (639-2020)

إعداد: د. عبد الجبار رجا محمود العودة: فلسطين، طولكرم

Prepared by: Dr. Abdul-Jabbar Raja Mahmoud Al-Odah

الملخص:

هدفت الدراسة إلى كيفية تعامل المسلمون مع الأوبئة والأمراض في تاريخهم، والتأثيرات الاجتماعية والسياسية لإنتشار الأوبئة في التاريخ الإسلامي، وكيفية التعامل مع وباء الكورونا وفق الرؤية الإسلامية.

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المعلومات من المصادر التاريخية، خاصة المعاصرة للأحداث، ونهج أسلوب التحليل في الآثار التي تركتها الأوبئة على الانسان.

وتوصلت الدراسة إلى مواكبة فلسطين التقدم العلمي في مجال الطب، فقد نبغ الكثير في صناعة الطب وتركيب الأدوية نتيجة اهتمام الخلفاء بالعلوم الطبية، وأوصي المهتمين بالعلم بدعم جهود الباحثين للعمل على إخراج الكثير من المخطوطات الطبية للنور من خلال تحقيقها ونشرها. كما توصل البحث إلى أن جائحة كورونا هي ظاهرة عالمية عمت البشرية جمعاء، فلم تترك بقعة من الأرض إلا وتغلغلت فيها، بينما انحصرت الأوبئة السابقة في مناطق جغرافية محددة، لذا يوصي الباحث بارتداء المعدات الطبية للحماية الشخصية، وخاصة العاملين في مجال الصحة عند تعاملهم مع المرضى.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة والأمراض، الحياة العامة، فلسطين، الخلافة الراشدة

Abstract:

The study aimed at how Muslims dealt with diseases and epidemic situations throughout history, the social and political effects of the spread of epidemic in the Islamic history and how to treat corona virus from Islamic perspective.

The researcher of this survey has depended on the information from historical sources, particularly those were contemporary events. The researcher followed the method of analysis of the effects the epidemic left on mankind.

The study found that Palestine kept up with the scientific progress in medicine where lots of people were genius in medicine industry and medication as a result of the caliphs' interests in medical sciences. Those

interesting in science recommended supporting researchers to produce lots of medical manuscripts via investigating and publishing them . Moreover, the research found that corona epidemic is a global phenomenon affecting mankind everywhere that no a piece of land was safe from it. Meanwhile, the previous epidemic was limited in certain geographical areas. Therefore, the researcher recommends using medical supplies to protect ourselves especially who are working in health care when dealing with patients.

Keywords: epidemic and diseases, public life, Palestine, the rightly Caliphs

المقدمة:

تنتشر الأمراض التي تسببها الفيروسات في كل أنحاء العالم، وفقاً لمدى تقدم سبل الوقاية والعلاج والقضاء على ناقلات المرض مثل القوارض والناموس والذباب. والمرض يصيب الإنسان والحيوان وتسببه جرثومة موجودة في الحيوانات القارضة أو البراغيث الموجودة عليها (أبو الحب، 1982، 63).

شهدت فلسطين وعموم بلاد الشام أحداثاً هامة عبر تاريخها، إذ كانت على الدوام مسرحاً للحروب والمعارك، وفي ذات الوقت لم تسلم من الأوبئة والجوائح والزلازل والمجاعات، ويمكنني القول أن البلاد بليت برباعية الموت والحروب والمجاعات والأوبئة والزلازل، حيث كانت تجتاح فلسطين بين الفينة والأخرى إحدى هذه الأربعة القاتلة، فتحصد من حين لآخر مجموعات قد يقل عددها أو يكثر، تبعاً لحدوث الكارثة وامتدادها زمنياً وانتشارها جغرافياً.

تعرضت فلسطين للكثير من الأوبئة، بدأت بمحنة النبي أيوب في التوراة (العهد القديم، سفر أيوب، اصحاح 6 سطر 1–2) والقران (سورة ص، آية، 41–44)، وما قاساه من ألم، فابتلاه في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، فأصبح مرض الجذام[1] من الأمراض السارية في فلسطين، وأصبحت امتحاناً لصبر المؤمنين وعقاباً على ابتعاد الناس عن الصراط المستقيم.

([1]) الجذام: مرض جلدي معد، يؤدي إلى تقرحات جلدية شديدة تتفاقم لتتسبب تلف في الأعصاب. (منظمة الصحة العالمية، 2010)

وحين يبدأ المرض في الانتشار خارج حدوده المعتادة فإنه يتحول إلى وباء، والذي تعرّفه منظمة الصحة العالمية بأنه تفشي المرض بأسلوب غير متوقع ويستدعي الاستنفار، وفي هذه الحالة يصبح الوباء كارثة وخاصة إذا حدث تهديد بانتشاره في كل أنحاء العالم، لتأثيرها السلبي الحاد على المجتمع البشري، وهكذا لا توجد حدود فاصلة بين المرض والوباء، فالمرض يمثل الخطر والوباء هو الكارثة (محسوب، 2000، 195).

يشهد العالم هذه الأيام جائحة لم تعرف البشرية مثيلاً لها، إذ يستطيع العلم والإنسان السيطرة عليه وعلاجه، وبصراحة لا نعلم كيف ومتى بدأ وباء كورونا، والذي نعلمه أن الوباء بدأ في الصين وانتقل إلى جميع أنحاء المعمورة.

مشكلة الدراسة:

النظر في الماضي بخصوص الأوبئة وتأثيراتها في المجتمعات، والتأمل في كيفية مواجهة أجدادنا للوباء، مهمة للبحث في الظروف الاستثنائية التي يعيشها العالم بسبب وباء الكورونا 2019، من أجل دراسة اخبار الماضي لاستخلاص دروس تفيدنا في الحاضر والمستقبل.

أهداف الدراسة:

1–التعرف إلى كيفية تعامل المسلمون الأوائل مع الأوبئة والأمراض في تاريخهم.

2–التعرف إلى التاثيرات الاجتماعية والسياسية لانتشار الأوبئة في التاريخ الإسلامي.

3–التعرف إلى كيفية التعامل مع وباء كورونا وفق التعاليم الإسلامية والقانونية.

أسئلة الدراسة:

1–كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة والأمراض في تاريخهم؟

2–ما التأثيرات الاجتماعية والسياسية لانتشار الأوبئة في التاريخ الإسلامي؟

3–كيف نتعامل مع وباء كورونا وفق التعاليم الإسلامية والقانون؟

أهمية البحث:

1–اهتمام علماء المسلمين بمثل هذه الأوبئة بالتأليف والدراسة.

2–الأثر الكبير الذي تركته هذه الأوبئة على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في فلسطين.

3-تناثر المعلومات في المصادر المختلفة حول الموضوع وإخراجها في إطار دراسة علمية.

4-التهديد المستمر التي تشكله هذه الأوبئة على حياة الإنسان وحضارته.

منهجية الدراسة:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المعلومات من المصادر التاريخية، خاصة المعاصرة للأحداث، ونهج الباحث أسلوب التحليل في الآثار التي تركتها الأوبئة على الإنسان.

المبحث الأول: انتشار الأوبئة في فلسطين في ظل الدول الإسلامية

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في الخلافة الراشدة (11هـ/632م-41هـ/661م)

ارتبط اسم فلسطين في التاريخ بطاعون عمواس الذي انتشر في بلدة عمواس[1] قضاء اللد عام 18هـ/639م، بين الجيوش الإسلامية بداية الفتوحات الإسلامية، فهلك الكثير من سكان الشام، منهم أبو عبيدة الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارثة بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وفي ولاية عمرو بن العاص عولج الوباء بإشعال النيران وخروج الناس الى الجبال (ابن كثير، 1990، 7/93-94).

أشهر طاعون أصاب بلاد الشام، كان طاعون عمواس في فلسطين، الذي قضى على عشرين الفاً من المسلمين (الجعفر، 2010، 60)، حتى أطلق عليه اسم الفناء أو الوباء لشدة فتكه بالبشر (بركات، 2016، 9)، وهو عدد قليل إذا ما قورن بطاعون جستنيان[2] عام 10هـ/11هـ - 541/542م، حيث قضى على خمس وعشرين مليوناً خلال قرنين من الزمن، والموت الأسود[3] الذي اجتاح أوروبا وغرب أسيا في القرن الرابع عشر الميلادي.

وقد عالج العرب هذه الأوبئة عن طريق العزل والانتقال إلى الأماكن المرتفعة والابتعاد عن مركز الوباء أي الحجر الصحي، ولكنه لم يطبق إلا بشكل بدائي، تطبيقاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا وقع ولستم بها فلا تقدموا عليه" (ابن حنبل، 2006، 12/176). وفيه اشارة واضحة إلى ما يطبق اليوم علمياً وعملياً من الحجر

([1]) عمواس: بلدة في فلسطين تقع بين الرملة وبيت المقدس، تكثر فيها الينابيع الحارة. (مبارك، 2007، ص50).

([2]) طاعون جستنيان: نسبة إلى الإمبراطور جستنيان الأول (527-565م)، بدأ عام 541م، ويعتبر أول جائحة في التاريخ لأنه اجتاح ثلاث قارات. (الأسود، 2020، ص17).

([3]) الطاعون الأسود: يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى وباء الطاعون الذي اجتاح أنحاء أوروبا بين عامي 1347-1352م، وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة. (جبر، 2009، ص5).

الصحي بهدف مواجهة الأوبئة المنتشرة، فرسول الله لم يكتف بأن يأمرهم بعدم القدوم إلى الأرض الموبوءة، بل أتبعها بأن أمر من كان في أرض أصابها الطاعون ألا يخرج منها، وذلك لمنع انتشار العدوى فينتقل الوباء إلى مناطق أخرى.

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في الدولة الأموية (41هـ/661م–132هـ/750م

كان قدر الدولة الأموية أن تحكم العالم الإسلامي في ذروة فتك الطاعون بالناس، فقد اجتاح الطاعون بلاد الشام أيام الدولة الاموية عام 662هـ/1225م، وقضى على كثير من الخلق، ودمر بلاداً كانت عامرة، حتى أصبح المؤرخون يؤرخون بتلك الأيام، فأرخ ابن حجر العسقلاني بقوله: "إن الطواعين أيام بني أمية كانت لا تنقطع بالشام" (العسقلاني، 1411هـ، 363).

أصاب البلاد في عام 87هـ/ 705م طاعون الفتيات لأنه أصاب النساء دون الرجال، بينما سماه البعض بطاعون الأشراف لكثرة ما توفي من أشراف القوم وأكابرهم (فاضل، 2011، 105).

وكان آخر ما حدث من الطاعون هو طاعون مسلم بن قتيبة سنة 131هـ/748م، والذي سمي باسمه لأنه أول من مات به، وكان سبباً في سقوط الخلافة الأموية، بسبب عجزها –الدولة الأموية– عن مواجهة هذا الوباء، وكان لجهل الناس بأسباب وطرق الوقاية منه الدور الأكبر في انتشاره إلى بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا، مخلفاً خللاً ديمغرافياً امتدت آثاره سنوات طويلة.

لم تتخذ الدولة الأموية أي إجراءات لمقاومة الطاعون سوى النداء لإخلاء الناس المناطق الموبوءة، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان قد أمر الناس بالخروج من مناطق الوباء، لكن الصحابي أبا الدرداء أمير الشام رفض تنفيذ أوامر الخليفة معاوية، لما في ذلك من سرعة انتشار الوباء إلى مدن وقرى أخرى بسبب الفارين منه (ابن بطة، 1994، 226/4)، بالإضافة إلى أن هذه السياسة مخالفة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نهى عن الخروج من مناطق الوباء، وعلى الرغم ن ذلك استمر خلفاء بني أمية بالفرار من الطاعون إلى البرية، ولم يشذ عنهم إلا الخليفة عمر بن عبد العزيز (ابن سعد، 1968، 398/5).

دفن الناس موتاهم في البداية كما هي العادة، تكفين وصلاة عليهم، إلا أن كثرة الوفيات بالطاعون أصبح من الصعب إيجاد من يجهز ويكفن ويحفر القبور، فكانوا يدفنون موتاهم دون تجهيز وصلاة عليهم، فكان تجهيز المتوفى للدفن عملاً فوق طاقة الأسرة، وإيجاد موضع جديد للحفر في المقابر أمراً صعباً.

قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ببناء أول مشفى (بيمارستان)[1] في دمشق، وأصدر أمراً بعزل المصابين بالجذام وتجنب اختلاطهم ببقية المرضى في المستشفى، وأجرى لهم الرواتب، وقدم العلاج بالمجان، وانتقى أفضل الأطباء لخدمتهم.

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في الدولة العباسية (132هـ/750م-656هـ/1258م)

أصاب فلسطين في أول عهد الخليفة هارون الرشيد طاعون وصفته المصادر بأنه جارف وربما أتى على جميع أهل البيت، وبشكل عام قل حدوث الطاعون في بلاد الشام أيام الدولة العباسية، مقارنة بما كان عليه الحال قبل ذلك، حتى أن أحد أمراء العباسيين في الشام، خطب فقال: "احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولينا عليكم" (العسقلاني، 1411هـ، 364).

انتشر سنة 423هـ/1031م وباء الجدري، وكثر الموت واستمر ستة شهور، وكان متفشياً في الصغار أكثر من الكبار، وانتشر بشكل كبير بحيث لم تخل دار منه (ابن الاثير، 205/8)، وكان الحجر الصحي يتم بالعزل والحبس أحياناً، والطرد والنفي أحياناً أخرى، وتحويل قرية أو بلدة بأكملها إلى موقع محاصر يمنع اقتراب الناس أو الخروج منه، كما كان يتم في المغاور على أطراف المدن والقرى، فمثلاً كانت كنيسة الخضر أو القديس جورجيوس في قرية برقين قضاء جنين، معقلاً للحجر الصحي والتي أقيمت على مغارة قديمة استخدمها أهل تلك البلاد لحجر الرجال العشرة البرص (الجذام) (جبور، 2015)، الذين شفاهم النبي عيسى في ما اعتبر إحدى معجزاته.

كما استخدم أهل البلاد الآبار وأتوان[2] الكلس كمحاجر لعزل المصابين بالأوبئة، وكثيراً ما تحولت هذه المواقع إلى قبور جماعية خصوصاً في حالة الأمراض المعدية.

اهتم الخلفاء العباسيون بإنشاء المشافي، حيث نسبت بأسمائهم، كما فعل الخليفة العباسي المقتدر بإنشاء مشفى المقتدري (ابن الاثير، 2006، 502/8)، فكانت الدولة تستعين بالأطباء في اختيار مكان المشفى، فقد استعان عضد الدولة وزير الخلافة العباسية بالطبيب أبي بكر الرازي في بناء مشفى العضدي في بغداد (السباعي، 1998، 101).

([1]) البيمارستان: لفظ فارسي يتكون من مقطعين، هما: البيمار وتعني المرضى، وستان تعني الموضع، فيكون معناها موضع المرضى أو بيت المرضى، وهو المكان المخصص لإقامة المرضى من أجل تلقي العلاج. (انظر، ابن اصيبعة، 172/1).

([2]) التون: حفرة على شكل بئر يستخدم لصناعة الكلس أو الشيد للبناء. الباحث.

لذلك كان في فلسطين حركة طبية، سايرت التقدم العلمي الذي شهده العالم الإسلامي، ووجد بها عدد من الأطباء في مجال الطب والصيدلة، منهم: محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، الذي كان في مدينة الرملة (ابن أصيبعه، 546/1)، ويوسف النصراني الذي كان عارفاً بصناعة الطب والعلوم الأخرى (ابن أصيبعه، 545/2).

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في فترة الاحتلال الصليبي (492هـ/1099م-583هـ/1187م

كان من أشد ما بليت به البلاد توافق الحملات الصليبية ووباء الطاعون على فلسطين والشام، وذلك من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (489هـ/1096م-690هـ/1291م)، فاجتمعت على البلاد آفتان معاً، إذ توالت السنوات بوقوع الطاعون والأوبئة، فنجده تارة يفتك بالصليبيين كما في الطاعون الذي فتك بجيوشهم التي حاصرت مدينة أنطاكية ثم احتلتها خلال عامي (1324هـ/1907م-1325هـ/1908م) (وليم، 1992، 332/2)، ونجده تارة أخرى يفتك بأهل البلاد المحاصرين كما في الطاعون الذي بدأ بدمشق سنة 547هـ/ 1153م، وكذلك وباء عام 585هـ/ 1190م، الذي فتك بجيش المسلمين المتوجه إلى عكا (ابن كثير، 1990، 93/12-94).

وفي سنة 574هـ/ 1178م انحبس المطر في بلاد الشام ومنها فلسطين، ونتيجة لذلك اشتد غلاء الأسعار بشكل كبير جداً، وأكل الناس الميتة، وتبع ذلك وباء عام كثر فيه الموت (العسقلاني، 1411هـ، 230).

وقد ذكر ابن الاثير أن مرضاً يسمى السرسام[1] أصاب الناس، واستمر إلى بدية 576هـ/ 1180م، أدى إلى موت عدد كبير من الناس.

كانت الأديرة والكنائس في فلسطين بمثابة مواقع للحجر الصحي، إذ تطوع الرهبان فيها لرعاية المصابين بالطاعون والجدري من أجل التكفير عن ذنوبهم، وقد ارتبطت هذه المواقع بالغزو الصليبي للبلاد، إذ أقامت فرقة الاسبتارية الصليبية عام 524هـ/ 1130م هيئة استشفائية خارج سور القدس، في الركن الشمالي الشرقي للمدينة على الطريق المؤدي إلى جبل الزيتون، لمعالجة المصابين من فرسان الفرقة.

(1) السرسام: هو ورم في حجاب الدماغ يحدث عنه حمى دائمة، ويتبعها اعراض سيئة كالسهر واختلاط الذهن. (انظر، مصطفى، 885/1).

كما استخدمت زوايا الصوفية للحجر الصحي، مثل زاوية الشيخ الرومي في قرية عين ماهل في الجليل، وما زالت جدران الزاوية مثبت فيها مرابط الجنازير التي كانت تربط بالمصاب لطرد المسّ الشيطاني أو الجن منهم حسب اعتقادهم الصوفي، واتخذ البعض ضفاف الأنهار ملاذاً لهم، كنهر الأردن لقداسته الدينية عند المسيحيين، بهدف الاستشفاء بمائه المقدس (رحيل، 2020).

وبعد فتح مدينة القدس وتحريرها عام 582هـ/ 1187م على يد صلاح الدين الأيوبي نقل حجر المصابين من الصليبيين إلى مدينة عكا في أماكن تشبه المشافي، وما زال سكان المدن والقرى يطلقون على المشافي لفظ الاسبتار أو الأسبطار نسبة لفرقة الاسبتارية الصليبية التي ارتبط المشفى كحجر صحي باسمها (رحيل، 2020).

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في فترة الدولة المملوكية (648هـ/1250م-923هـ/1517م

تشير المصادر التاريخية إلى أن الطاعون لم يتوقف عن غزو بلاد الشام، وظل يطل عليها بين الفينة والأخرى، لكنه صار أشد فتكاً وأكثر قسوة في العهد المملوكي (648هـ/1250-923هـ/1517م)، ولا تنفك تلك المصادر تتبع أخباره وذكر ما أفنى من الخلائق، وذكر القرى والضياع التي خربت بسببه ولم تعمر بعد ذلك، حتى أن البلاد في العهد المملوكي ما عرفت الهناء والرخاء وظل شبح الموت يلاحقها بفعل الأوبئة والطواعين، فقد تعرضت البلاد لطاعون اجتاح معظم البلاد عام 748هـ/1347م، اطلق عليه اسم الطاعون الأعظم لسعة انتشاره وشدة فتكه بين سكان دمشق وحلب والقدس والسواحل (الطراونة، 2010، 47-48)، وجنين والرملة وعربان البوادي (ابن بطوطة، 1981، 114)، وفي عام 790هـ/1388م تعرضت البلاد لعدة أوبئة وأمراض تفشت في غزة والقدس وحلب (ابن اياس، 1975، 365/1)، واستمر بفتك البلاد حتى عام 796هـ/1394م وأدى إلى هلاك أعداد كبيرة من الأطفال والصبيان وكبار السن (ابن يحيى، 1967، 216).

وبعد انقطاع طويل عاد وظهر في عام 805هـ/1402م الفناء العظيم وأفنى خلقاً كثيراً من السكان في بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين (الدويهي، 1976، 338)، وفي عام 813هـ/1410م تفشى الطاعون في نابلس وعجلون وأفنى اعداداً كبيرة (ابن اياس، 1975، 803/1)، وفي عام 819هـ/1416م وصلت جرثومة الوباء العظيم إلى مدينة دمشق، وانتقلت العدوى إلى القدس وصفد وطرابلس، وقدرت حالات الوفاة بالألاف من السكان (ابن الصيرفي، 1970، 363/2)، واستمر الوباء في الانتشار إلى أن وصل غزة، والرملة، والقدس والخليل والكرك، وقدر عدد الوفيات في هذه البلاد بالآلاف معظمهم من الأطفال والنساء والخدم (المقريزي، 1970، 639/4).

كما تفشت الأوبئة والأمراض بين سكان بلاد الشام في الأعوام 831هـ/1428م–833هـ/1430م، وكانت شديدة التأثير والفتك بسكان مدينة غزة والرملة والقدس وصفد ومات بسببها معظم الأطفال والشباب، ووصف المقريزي هذا المرض بأنه نزلة من الدماغ إلى الصدر فيموت خلال ساعة من غير ظهور أعراض المرض عليه (829/824/803/767/4)، ثم عاد الوباء عام 838هـ/1434م، واستمر السكان يعانون منه حتى عام 841هـ/1437م، إذ اشتد تأثيره في صفد والغور والرملة وغزة، وحصد الألاف من السكان (1048–1024/4)، وفي عام 863هـ/1459م نشأ طاعون في البلاد، وكان تأثيره كبيراً في مدينة غزة والقدس، حتى أنه حصد أهلها (ابن اياس، 1975، 354/35/2)، ولكثرة الوفيات تركت الجثث في العراء مدة ثلاثة أيام، ولم يتمكن حفارو القبور من دفن الجثث، وتطوع الناس لحملها على السلالم والأبواب لدفنهم، واستمر الوباء إلى عام 898هـ/1492م بعد أن أصاب غزة والقدس والرملة والخليل (العليمي، 63/2).

وقد ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه الانس الجليل عن وصول وباء الطاعون الى فلسطين عام 897هـ/1491م، وافنى عدداً من السكان، قدر عدد الوفيات من 30–40 شخصاً يومياً (487/2).

بالإضافة للطاعون كان للحميات وأمراض الجدري والجرب تأثير كبير في الحد من النمو السكاني فالأطفال الذين يولدون يموتون في غضون يوم أو يومين (المقريزي، 1970، 824/4).

فقد اهتم المماليك في هذه الفترة بإنشاء المشافي، المعروفة بالمارستان، لمداواة ورعاية المرضى، والحقت بها غرف الحجر الصحي (صلاح، 2009، 120)، على يد سيف الدين تنكز، وأماكن الحجر للمسافرين والحجاج، واهتموا بمد قنوات المياه إلى مدينة الخليل والقدس أيام الظاهر بيبرس والناصر بن قلاوون، فقد عمد بعض الحكام والأثرياء استجابة لتعاليم الدين الإسلامي والتي تحض على دفن الميت بأسرع وقت ممكن حفاظاً على حرمته وكرامته، إلى إنشاء ما سمي بحوانيت أو مغاسل الموتى، والتي تهتم بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين ثم يتم دفنهم وفق الشريعة الإسلامية، لأن الناس كانت تموت بأعداد كبيرة في فترة الوباء فإن الجثث كانت تترك ثلاثة أيام أحياناً على الأرض ولا يوجد من يواريها خوفاً من العدوى (الطراونة، 2010، 55).

كما ظهر بعض الأطباء الذين اهتموا بمعالجة هذا الوباء من خلال مصنفاتهم، مثل: جلال الدين السيوطي صاحب كتاب مقامة في الحمى، وابن حجر العسقلاني صاحب كتاب بذل الماعون في فصل الطاعون، وبدر الدين البدليسي صاحب كتاب رسالة في الطاعون وجواز الفرار منه، وأحمد بن محمد الحنفي صاحب كتاب الرد المكنون في الكلام عن الطاعون، وجميعها قدمت وصفات طبية لمعالجة السعال الذي يرافق الأوبئة.

أدت الأوبئة في العهد المملوكي إلى إخلال في التركيبة السكانية، والذي أدى إلى تباين كبير في الكثافة السكانية بين المدن والقرى، إذ إنّ كثيراً من القرى اختفت تماماً بفعل الوباء، فنتج عن ذلك تغير ديموغرافي، حيث قل عدد الفلاحين، وقلت المنتوجات والمحاصيل الزراعية والحيوانية، ونتج عن ذلك غلاء في الأسعار، ولجأ بعض ضعاف النفوس من التجار وأرباب الصنائع إلى استغلال الأزمة باحتكار السلع الأساسية لزيادة ثروتهم، بينما مال بعض المحتاجين والمعدمين إلى السرقة والاحتيال، والذي أدى إلى انهيار أخلاقي في المجتمع. وأدى الوباء إلى هلاك الكثير من الأتقياء ورجال الدين والعلماء الصالحين، فشكل ذلك فراغاً في المرجعية الدينية، حتى أن الناس بدأوا يلجؤون في تلك الفترة إلى المشعوذين والمنجمين حتى يسدوا الفراغ الروحي لديهم (الطراونة، 2010، 45-46).

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في فترة الدولة العثمانية (623هـ/1517م-1334هـ/1916م

خلال الحكم العثماني لفلسطين لم تتوقف الأوبئة، حيث انتشر الطاعون فيها خلال الأعوام، 969هـ/ 1562م، 980هـ/1573-981هـ/1574م، 986هـ/ 1579م، 995هـ/ 1587م، 1028هـ/ 1619م، 1071هـ/ 1661م، 1199هـ/1785-1200هـ/1786م، فقد لعبت الحملة الفرنسية على فلسطين عام 1213هـ/ 1799م، دوراً كبيراً في تفشي مرض الطاعون نتيجة تحلل جثث القتلى من الفرنسيين، وقد تفشى في سكان يافا وأدى إلى خراب المدينة وهجرها لمدة اثني عشر عاماً، كما عاث الطاعون فساداً في جميع المدن التي رافقت الحملة الفرنسية مروراً بغزة ويافا وحيفا ثم عكا، وقد رافق الطاعون الدمامل التي تفشت في الجسم من القوارض والبراغيث التي تحملها إلى المصابين، وهو السبب الرئيس في انسحاب نابليون من فلسطين وعودته إلى فرنسا، إلا أن الطاعون دمر الحياة الاقتصادية في فلسطين (سعيد، 2008، 19).

وفي سنة 1227هـ/ 1812م انتشر الطاعون في الاستانة، ثم انتقل بجبة جوخ أرسلت كهدية إلى يهودي في عكا، فانتشر الوباء فيها بشكل سريع إلى يافا والقدس، ومن جملة من مات به الطبيب الراهب الاسباني فرانسيسكو لوبيز، الذي عالج أحمد باشا الجزار، كما مات بالطاعون أيضا الرحالة الألماني اولريش زيتش سنة 1228هـ/ 1813م (بركات، 2016، 12).

تبنت الدولة العثمانية سياسة الحجر الصحي (الكوارنتينا)[1] للوقاية من مرض الطاعون، ولا تزال بعض المدن الفلسطينية تحتفظ بالأماكن التي أسست قديماً لغرض الحجر الصحي، وهناك من يعتقد بأن كلمة قرنطل في اسم الدير المسيحي في أريحا الذي سمي من قبل الصليبيين، إنما جاء من كلمة كورنتينا بحكم الاعتقاد أن صوم سيدنا عيسى واعتزاله لأربعين يوما في هذا المكان (الدباغ، 2006، 548/8)، كما يوجد كارنتينا في القدس بجوار كهف الأدهمية خارج باب العمود، ثم في عام 1265هـ/ 1849م أقيمت كرنتينا جديدة خارج السور قرب قلعة باب الخليل.

ويعود الفضل في تطبيق الحجر الصحي إلى طبيبين عربيين هما قاسم أبو عز الدين وحمدان بن عثمان خوجه على أسس صحية وعلمية، وقد أتت توصيات حمدان بن عثمان خوجه ثمارها خلال عامين من تبني السلطان محمود الثاني مبادئ الحجر الصحي.

ومع الغزو المصري لبلاد الشام، بدأت سياسة الأمن الوقائي من الأمراض المعدية، فأقام محمد علي باشا المحاجر الصحية بعد تعرض مدينة عكا بمرض الملاريا عام 1250هـ/ 1835م والتي كادت تفتك بإبراهيم باشا نفسه، فأقاموا المشافي العسكرية في عكا وشفا عمرو وترشيحا وغزة لمعالجة الجنود المصريين المصابين بالملاريا والكوليرا، حيث خصصت هذه المحاجر بالدرجة الأولى لمعالجة الجنود وليس أهل البلاد، حيث يتم عزلهم في مناطق توطن الوباء، فحين علم ناظر الصحة في مدينة يافا وهو موظف مصري بوجود وباء في قرية دير حنا بين صفد وعكا، أرسل طبيباً ليفحص الأمر، وعندما تيقن من وجود الوباء عزلت القرية حتى فتك المرض بعدد كبير من سكانها (صافي، 2019، 217–218)، ولجأوا إلى قطع خطوط المواصلات بين المدن والقرى، كما حصل عام 1253هـ/ 1838م حين قطعت خطوط المواصلات بين يافا والقدس.

وفي عام 1250هـ/ 1835م سمح محمد علي باشا لليهود والمسيحيين بإقامة المحاجر الصحية في يافا لاستقبال الحجاج، بناء على طلبهم واحتجاجهم على المحاجر في بيروت (العقرباوي، 2020)، وعلى أثر ذلك عانت يافا من تردي الوضع الاقتصادي فيها لقلة الحجاج الوافدين اليها، وكان مما قاله إبراهيم باشا في موافقته على طلبهم "سأوافق على طلبكم، وأسمح لكم بإقامة المحاجر في يافا ... أنا غير معني بالناس الآخرين، لكن يجب أن أفكر بجنودي الذين أفضل أن أراهم يموتون في المعارك على أن يموتوا بالطاعون الرهيب" (صافي، 2019، 219).

(1) الكوارنتينا: أو كرنتينا، أو قرانتينه، أو تحفظخانه كما ورد في نقش عثماني على مدخل كرنتينا في الخليل، هي مكان الحجر الصحي وتعني بالعربية أربعين يوماً. (انظر، هلون، 2019م، ص714–715).

فأصبحت مدينة يافا مركزاً صحياً لحجر المصابين، وازدادت حركة الحجيج والتجار والمهاجرين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما جعل سكانها في حالة توجس وخوف من الأوبئة والأمراض التي قد ينقلها القادمون، إلى حد انهم تداولوا النقود المعدنية من خلال وضعها في أكواب الماء، فكان على شاطئ يافا قارب الحجر الصحي ورجل أمن وموظف الحجر الصحي يستقبلون الوافدين إلى المدينة ليتم حجرهم داخل المدينة للتأكد من سلامتهم (روجرز، 2012، 27)، فوجد بها أكثر من كرنتينا، مثل: كرنتينا التحتانية جنوب يافا، والكرنتينا الفوقانية داخل السور، وكرنتينا دير الروم، وكرنتينا دير الأرمن، وكرنتينا الهدار.

وأنشأ محمد علي باشا كرنتينا في بلدة الشيخ زويد شمالي سيناء لحجر القادمين إلى مصر من بلاد الشام، كما أنشأ العثمانيون كرنتينات في غزة، والخليل عام 1264هـ/ 1848م، ونابلس ولا يزال الأهالي يسمون الدرج الواقع بجانب المشفى الوطني باسم درج الكارنتينا.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتمت الدولة العثمانية بالسيطرة على الوباء في موسم الحج، كما ظهر في هذه الفترة الطبيب قاسم أبو عز الدين (1270هـ/1854م–1346هـ/1928م)[1] المتخصص بالطب الوقائي، فأقام غرف الحجر الصحي لحماية الحجيج من تسرب الأوبئة وخصوصاً الكوليرا.

وفي هذه الفترة كانت فلسطين مرتعاً لموجات متكررة من الأمراض وعلى رأسها الكوليرا والتيفوس والتيفوئيد التي اجتاحتها في سنة 1253هـ/ 1838م، وسنة 1263هـ/ 1847م، وسنة 1281هـ/ 1865م، وسنة 1317هـ/ 1900م، وسنة 1322هـ/ 1905م، وقد قضت هذه الأمراض على مئات الآلاف من الجنود على الجبهات العثمانية خلال الحرب، لذلك كان يتوجب على المسافرين القادمين إلى فلسطين البقاء بين 10–12 يوماً في غرف الحجر الصحي.

وقد لمع روحي الخالدي في قيادة حركة الإصلاح الصحي في (مجلس المبعوثان)، ودعم مطالب الطبيب أبي عزالدين في إخضاع المراكز الصحية في فلسطين وباقي الولايات لسلطة الدولة المركزية، وقد لمع الدكتور توفيق كنعان المتخصص بالأمراض الجلدية ومرض الجذام في إدارة المشفى العسكري العثماني في القدس، وانتدبه الجيش الرابع بقيادة جمال باشا لإقامة المحاجر الصحية في سيناء وبئر السبع منعاً لتفشي الأمراض السارية والمعدية في أوساط الجيش، إلا أن ذلك لم يحل دون الموت بفعل الأوبئة (الطبابي، 2014، 20/1).

(1) قاسم أبو عز الدين (1854–1928) هو طبيب لبناني، متخصص بالطب الوقائي واستاذ الطب في جامعة استنبول، وأصبح وزير الصحة في الدولة العثمانية ورئيس المجلس الصحي الدولي.

كان الحجر الصحي في هذه الفترة يقوم في التكايا، والتي يطلق عليها تكايا التنابل، فكانت أول تكية لرعاية المصابين بالجذام والحد من انتشار المرض في مدينة أدرنه التركية في عهد السلطان مراد الثاني (جوكتشة، 2016، 264). وفي إطار محاولة الوقاية من الأمراض كان من تقاليد الفلاحين في فلسطين تربية الحمام في طاقات بيوتهم، لاعتقادهم بأن أعشاش الحمام تطرد الطاعون من البيوت (واتس، 2010، 76).

المبحث الثاني: انتشار الأمراض والأوبئة في فلسطين حديثاً

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في فترة الاحتلال والانتداب البريطاني (1335هـ/1917م-1367هـ/1948م)

كانت حركة الجيوش خلال الحرب العالمية الأولى عاملاً أساسياً في تفشي مرض إنفلونزا الاسبانية، وقد دخل هذا الوباء إلى مصر من خلال سفينة بريطانية متجهة إلى ميناء سيناء عام 1336هـ/ 1918م، فأصبحت قناة السويس منطقة لتفشي المرض نحو يافا التي كانت المحطة الأولى لوصول فايروس الإنفلونزا الاسبانية لفلسطين، ومن ثم إلى موانئ الإسكندرية وبور سعيد وحيفا ويافا وطبريا، ومع احتلال مدينة حيفا تباطأت بريطانيا في توفير خطٍ مباشرٍ لإجلاء المصابين إلى الإسكندرية، حيث أنشئ مشفى ميداني، مما أدى إلى فتح خطوط عبر المدن الساحلية وتحسين الشبكات البرية وإنشاء السكك الحديدية من سيناء إلى رفح عبر غزة ومنها إلى بئر السبع واللد وصولاً إلى القدس، وإضافة سكة حديد جديدة أخرى وصلت بين يافا ونابلس وحيفا.

إن أكثر الأمراض انتشاراً في فلسطين هما الرمد والملاريا، فالرمد أصاب طلاب المدارس، وخاصة في القرى لعدم توفر العناية الصحية، فمنهم من فقد النظر في عين واحدة، ومنهم من فقد النظر كلياً، وقد قل انتشار هذا المرض في نهاية الانتداب بسبب انشاء مراكز صحية في معظم مدن وقرى فلسطين، كما أنشئ مشفى سانت جون للعيون في مدينة القدس (Palestine, 1945, 13/171-175).

أما الملاريا فكانت منتشرة في المستنقعات الساحلية وخصوصاً في الكبارة قرب قيساريا، وشواطئ نهر الأردن وبحيرة الحولة، وامتدت إلى قرية بيت جبرين والقضاء على عدد كبير من سكانها.

كما أصاب قرية الدوايمة في الخليل وباء الجدري عام 1339هـ/ 1921م، حيث رفض الأهالي تطعيم ابنائهم وخبأوهم في الكهوف، لعدم قناعتهم وثقتهم بجدوى علاج الحكومة، لأن الطعم من

صناعة اليهود، وكانت الحكومة قد أقامت مشفى ميدانياً لتطعيم جميع الأهالي، لكن كان من المفروض على الحكومة البحث عن الأطفال في الكهوف وأسطح المنازل.

وقد انتقل الوباء الى مدينة القدس، حتى وصفها القساوسة بأنها أقذر مدينة زاروها أو عاشوا فيها (Thomas, 1846,289–291)، بسبب حاجتها إلى المياه، لذلك كانت تستدعي إقامة أحواض وبرك خارج المدينة لتنقل المياه إلى داخلها عبر قنوات، غير أن تلك الأحواض والبرك والقنوات كانت مرعى خصباً لتكاثر الناموس الناقل للملاريا، الذي قضى على نصف سكان المدينة وخاصة الأطفال منهم (Vicken,2016, 82–96).

وقد تعايش سكان المدينة مع الملاريا، وخاصة أن الدولة العثمانية لم تكن تطبق القواعد الصحية لمكافحة هذا المرض، لذلك كانت الإصابة كبيرة بين الجيوش والمدنيين، مما يدل على عدم كفاءة الدولة العثمانية في مكافحة المرض. ومن بين الضحايا العمال المصريون الذين جلبتهم بريطانيا لاحتلال فلسطين سنة 1335هـ/ 1917م، والتي كانت مهمتهم مد الخطوط الحديدية ونقل وتحميل الذخائر والمؤن على الجمال وباقي الأعمال اليدوية، وقد جلب هؤلاء العمال مرض البلهارسيا معهم إلى فلسطين، لكنهم كانوا أول ضحايا الملاريا بسبب عملهم في شمال فلسطين حيث تكثر المستنقعات، غير أن بريطانيا أهملت معالجتهم خلافاً للقوانين الصحية التي كانت مطبقة على جيوشهم.

في نفس الوقت عندما دخلت بريطانيا فلسطين، أدركت أهمية الحالة الوقائية الصحية، فاكتشفت دواء لمعالجة الملاريا المستخرج من شجرة الكينا التي استوردتها من استراليا، وزرعتها في فلسطين عام 1920م، وصرف لكل جندي بريطاني حبة كوينين يومياً، وبذلك قلّت نسبة الإصابات بين الجنود مقارنة بالجيش العثماني. لذلك لجأت إلى محاصرة الجيش العثماني في المناطق المنخفضة المصابة بالملاريا، بينما تركز الجيش البريطاني في الأماكن الجبلية الجافة، الأمر الذي ضمن سقوط القوات العثمانية قتلى بفعل الملاريا، وهو ما ساهم في تثبيت بريطانيا في الشرق. وبشكل عام كان اهتمام بريطانيا في فلسطين بتحسين اقتصاد المستعمرات، وذلك بمنع الأمراض عنها، والاهتمام بصحة العمال في مزارعها، فبدأت بتجفيف المستنقعات في الساحل الفلسطيني أماكن تواجد المستعمرات (Nadav, 2007, 122/398–406).

الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها فلسطين في فترة الاحتلال الإسرائيلي (1367هـ/1948م-1441هـ/2020م)

في عام 1367هـ/ 1948م القي القبض على يهوديين في غزة يحملان جراثيم لتلويث مياه غزة، حيث يتواجد الجيش المصري، وفي السنة نفسها قامت إسرائيل بتلويث مياه عكا بجرثومة التيفوئيد أثناء وجود الانتداب البريطاني، فسقط الكثير من الفلسطينيين ومن الجنود البريطانيين، ورفضت بريطانيا معاقبة اليهود على ذلك (Salam. 2005). وفي نفس السنة استولت إسرائيل على بيت شكري التاجي الفاروقي في جنين، وأقامت فيه مركزاً لإنتاج جراثيم الطاعون والتيفوئيد وغيرها من الجراثيم، ضم المركز 370 موظفاً من بينهم 160 عالماً بيولوجياً (The Naclear, 2017). كذلك قامت بزرع الأوبئة على الحدود الفلسطينية مع جيرانها من الدول العربية لتوقف التدخل العربي المحتمل في احتلالها لفلسطين (Salam. 2005).

ولم تتوقف إسرائيل عن تلويث البيئة الفلسطينية، فقد أطلقت الغازات السامة على غزة، الأمر الذي أدى إلى زيادة السرطان وإسقاط الأجنة.

وفي عام 1430هـ/ 2009م ظهر وباء إنفلونزا الخنازير في المكسيك، لدى اشخاص يعملون في مزارع لتربية الخنازير بعد حدوث طفرة جينية للفيروس مكنته من الانتقال من الخنازير إلى الانسان، وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية أن الوباء أصبح جائحة بعد تفشيه في العديد من دول العالم (**Coronavirus disease, 2020**).

ويرجح أن انتشار فايروس إفلونزا الخنازير في فلسطين أن يكون من المسافرين من فلسطين إلى دول أخرى، واختلاط المواطنين مع بعضهم البعض، الأمر الذي يسبب بانتقال العدوى من خلال التنفس والهواء. واتبعت وزارة الصحة الفلسطينية طرق الوقاية من فايروس إنفلونزا الخنازير بإعطاء الطعومات للأشخاص الأكثر عرضة وخاصة كبار السن وممن يعانون من أمراض مزمنة أو يعانون من نقص في المناعة (انفلونزا الخنازير، 2021).

بالإضافة إلى أن الكيان الصهيوني أطلق قطعاناً من الخنازير البرية على الأرض الفلسطينية، وأخذت تعيث في الأرض فساداً، والأهم أن هذه القطعان من الخنازير قد تعطي فايروس إنفلونزا إلى بعض الطيور دون أن يعلم بها الانسان وعن طريق أكل لحوم هذه الطيور يصل الفايروس إلى الإنسان.

نتيجة لانتشار هذا الفايروس بادرت الجهات المشرفة على الخدمات الصحية بسرعة تنفيذ البرامج الوقائية، وتوفير اللقاحات والأدوية المضادة التي من الممكن أن تقلل من المضاعفات الحادة

والوفيات بين السكان، بالإضافة إلى برامج التوعية ومواصلة نشر المعلومات المتعلقة بالمرض (دولة فلسطين، 2021).

بدأ الشارع الفلسطيني أكثر تفاعلاً مع تداعيات الأزمة المتعلقة بالمرض، لأن انتشار الوباء ارتبط بحيوان انتشر بين تجمعاتهم السكنية، مما دفع المؤسسات ذات العلاقة لمكافحة هذه الظاهرة عبر عدة وسائل، منها التسميم بالمبيدات التقليدية أو رميها بالرصاص، غير أن وسائل المكافحة أثبتت عدم فعاليتها بسبب وجود المستوطنات الإسرائيلية وجدار الفصل العنصري، ومنع إسرائيل إدخال سموم ومبيدات ذات العلاقة إلى الأراضي الفلسطينية بعد عام 1423هـ/ 2003م بحجة تأثير هذه المبيدات على المياه الجوفية والحياة البرية وبحجج عسكرية غير معلنة، أهمها إعداد وتصنيع مواد متفجرة (شريدة، 2009).

وقد أصدر قاضي القضاة في فلسطين تيسير التميمي بعدم إجراء أي عقد زواج قبل تقديم شهادة من مختبرات الصحة تفيد الخلو من وباء إنفلونزا الخنازير، وخاصة إذا كان أحد طرفي الزواج قادماً من دولة ينتشر فيها الوباء (معاً، 2006).

في أواخر عام 1440هـ/ 2019م بدأ فايروس كورونا (كوفيد 19) في الانتشار انطلاقاً من الصين نحو مختلف دول العالم بما فيها فلسطين، وينتمي هذا الفايروس إلى عائلة معروفة بتأثيرها على الإنسان والحيوان، يسمى كورونا فيريدي، اكتشف أول مرة عام 1379هـ/ 1960م، وتضم هذه العائلة فايروس (SARS) الذي ظهر في الصين عام 1422هـ/ 2002م، وفايروس (MERS) الذي ظهر في السعودية عام 1433هـ/ 2012م، وسمي هذا الفايروس بوكوفيد 19 أو كورونا المستجد، وقد شهدت مدينة بيت لحم بداية انتشار فايروس كورونا وصولاً إلى باقي المحافظات الفلسطينية الأخرى وبنسب متفاوتة (سلامة، 2020، 34).

أُطلق على هذا المرض(COVID-19) والاسم الإنجليزي للمرض مشتق كالتالي "CO" : هما أول حرفين من كلمة كورونا (corona)، و "VI" هما أول حرفين من كلمة فيروس(virus) ، و "D" هو أول حرف من كلمة مرض بالإنجليزية (disease) ، ويسبب حمى والتهاباً بالجهاز التنفسي، وقد يؤدي إلى الوفاة، وحتى الآن لا يوجد له علاج ولا لقاح، ولكن من يتمتعون بصحة جيدة ومناعة قوية يتعافون منه، وينتقل الفايروس من شخص لأخر أثناء فترة الحضانة (1-14 يوماً) أي قبل ظهور المرض (سلامة، 2020، 34).

لا أحد يعلم مصدر الوباء وسببه الحقيقي، فمنهم يقول إن أمريكيا اختلقت الفايروس لضرب اقتصاد الصين، علماً أن الصين لم تتهم أحداً، والبعض يقول إن الفايروس تسلل بالخطأ من إحدى

المختبرات الصينية، وآخرون يزعمون أن الصين تعمدت اختلاق الأزمة لأهداف اقتصادية، منها شراء أسهم الشركات الأجنبية العاملة في الصين بأسعار زهيدة، ومهما يكن فلا شك أن الفايروس موجود حقيقة، فهناك الكثير من النظريات التي تخرج يومياً من العلماء ورجال الدين والإعلاميين عن طرق الوقاية، فيجب أن لا نقلل من خطورة الوباء أو نتعامل معه كأمر عرضي (سلامة، 2020، 35).

الملاحظ أن فلسطين كانت من بين أقل الدول في عدد الإصابات والوفيات حتى نهاية رمضان/ أيار 1441هـ/ 2020م، وقد أعلنت السلطات الفلسطينية عن حظر دخول السياح من عدة دول حول العالم، وذلك ضمن إجراءاتها الاحترازية لمنع انتشار الفيروس في فلسطين، وأقرت سلسلة من إجراءات السلامة الداخلية بعد الاشتباه بوجود إصابات بالفيروس في بيت لحم (قناة الجزيرة، 2020)، وبعدها بدأت موجه ثانية من الجائحة أشد، وصارت أعداد الضحايا في ازدياد مستمر (سلامة، 2020، 42).

ومنذ وقت مبكر سارعت السلطة الوطنية الفلسطينية لفرض إجراءات صارمة لمنع انتشار وباء الكورونا ملزمة الناس بالبقاء في منازلهم وعدم التنقل إلا للضرورة القصوى، كأحد أشكال الحجر الصحي التي عرفتها فلسطين منذ مئات السنين لمواجهة الأوبئة التي اهلكت العباد خلال القرون الماضية وغيرت الخارطة السكانية في فلسطين أكثر من مرة، كما شملت إغلاق الحدود، ومنع التنقل بين المدن، وتحديد ساعات التجول، وإغلاق الأماكن العامة، والمحلات التجارية، والمدارس والجامعات والمساجد والكنائس، وقد نجحت السلطة الفلسطينية في حماية المجتمع الفلسطيني من تفشي فايروس كورونا، بسبب انضباط المجتمع، والحالة الاقتصادية لم تكن متفاقمة كثيراً، الأمر الذي أدى إلى خروج المجتمع الفلسطيني من الوباء بأقل الخسائر (سلامة، 2020، 42).

بدأ التحول في الممارسة نحو العكس في فلسطين مع مطلع شهر حزيران 2020م، إذ جاءت مناسبة عيد الفطر وتجمع الناس في هذه المناسبة، كما شهد هذا الشهر مناسبات الأعراس المؤجلة، والعودة إلى الصلاة في المساجد بعد دعوة حزب التحرير الإسلامي بالعودة إلى الحياة العامة لعدم اقتناعهم بإغلاق المساجد لأي سبب كان، واعتبروها مؤامرة على الإسلام والمسلمين، بهدف إبعاد الشباب عن المساجد من خلال إغلاقها بحجة وجود وباء قاتل (المكتب الإعلامي لحزب التحرير، 2020). وبالمقابل هناك النقيض من غير الإسلاميين الذين رأوا في وباء كورونا مؤامرة على القضية الفلسطينية بهدف عزل الشعب والهائهم في وباء وهمي لا صحة له، وتدمير الاقتصاد الفلسطيني لتمرير عمليات سياسية مثل ضم الأغوار وإنشاء المستعمرات الإسرائيلية وصفقة القرن، فقد دعا هؤلاء إلى فتح الأسواق ورص الصفوف لمواجهة هذه الاخطار (الغول، 2020).

تزامنت دعوة حزب التحرير الإسلامي مع مجموعة عوامل ساعدت على انتشار الفايروس وهي: صعوبة وصول قوات الأمن الفلسطيني إلى منطقتي (ب، ج) حيث السيطرة الأمنية الإسرائيلية، الأمر الذي ساعد الناس في اختراق أوامر العزل والحجر الصحي، ونفاذ مدخرات الناس، مما اضطرهم إلى العودة إلى العمل في الداخل الفلسطيني المحتل، بسبب ضعف الاقتصاد الوطني والاعتماد على سوق العمل داخل الأراضي المحتلة، بالإضافة إلى توقف الحياة الاقتصادية والخدماتية والتعليمية وملل الناس من العزل الطويل داخل البيوت.

لعب الاحتلال الإسرائيلي دوراً في ارتفاع نسبة الإصابات في فلسطين، خصوصاً أن فلسطين مقسمة إلى ثلاث مناطق (أ، ب، ج)، وتخضع المنطقة (ج) لسلطات الاحتلال إدارياً وعسكرياً، بينما تتقاسم السلطة الفلسطينية الصلاحيات مع الاحتلال الإسرائيلي في المنطقة (ب)، وتفرد السلطة الفلسطينية بالمنطقة (أ)، وهذا يعني أن الحركة والتنقل والتجمعات مرتبط في كل المناطق بالطرف الإسرائيلي (مركز الزيتونة، 2020). لذلك فرضت القيود على الحركة لكل من المرضى والطواقم الطبية، ومشكلة الحصول على تصاريح انتقال العلاج، وكثافة نقاط التفتيش الأمنية الإسرائيلية الثابتة والمتحركة (World Health Organization,2019). بالإضافة إلى مشكلات العمال الفلسطينيين في الأراضي المحتلة والمستوطنات داخل الأراضي الفلسطينية (Report,2017). وفي نفس الوقت عانى الأسرى الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية، حيث تضم بعض السجون 400 سجين في مكان واحد، مما يزيد من احتمال انتقال الفايروس بينهم، وخاصة أن منهم من يعاني أوضاعاً صحية تجعل مناعتهم في حدها الأدنى.

الخاتمة:

تسبب فايروس كورونا في وفاة الكثير من السكان، لكن أوبئة أخرى سبقته قتلت الملايين في مختلف انحاء العالم، بل تسبب بعضها في إضعاف وسقوط دول وامبراطوريات، وفلسطين تكافح لمنع تفشي الفيروس في ظل سياسة الفصل العنصري الإسرائيلي في الضفة الغربية والحصار على قطاع غزة، ومع ذلك واجهت الأمراض والأوبئة على امتداد سنوات طويلة وتصدت لها بدرجات متفاوتة من النجاح.

النتائج:

من النتائج التي انتهى إليها البحث ما يلي:

- السيطرة على الوباء ومنع انتشاره من خلال العزل والحجر الصحي.
- كان طاعون عمواس في بلاد الشام هو الوحيد في عصر الخلافة الراشدة.
- واكبت فلسطين التقدم العمي في مجال الطب والصيدلة، فقد نبغ العرب والمسلمين في صناعة الطب وتركيب الأدوية، نتيجة اهتمام الخلفاء بالعلوم الطبية.
- حملت القوات البريطانية الانفلونزا معها إلى فلسطين في أوائل أيلول 1918م، مما أدى إلى تفشي الوباء في فلسطين وبين طرفي الحرب، ولعلها ساهمت في هزيمة القوات العثمانية.
- لم تنجح الدراسة في تحديد معدل الوفيات بين السكان، لكنها استنتجت انها كانت كبيرة.
- يأمل الباحث أن تساهم دراسته في تحفيز المزيد من البحوث حول الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت تلك الفترة.
- وجوب الأخذ بأسباب الوقاية والعلاج مع القناعة والاعتقاد بأن لا مفر من قدر الله.
- وجوب تجنب أماكن العدوى والالتزام بقواعد الحجر الصحي التي تحددها الحكومة والهيئات الطبية المختصة.
- التقيد بإرشادات وتوجيهات ونصائح الجهات الرسمية والهيئات الطبية لأنها الأكثر معرفة بتفاصيل المرض والأوبئة.
- إن الأوبئة لها أثار اقتصادية ارتبطت بشكل أو بأخر بتراجع المستوى المعيشي لفلسطين إلى أدنى المستويات.
- جائحة كورونا هي ظاهرة عالمية عمت البشرية جمعاء فلم تترك بقعة من الأرض إلا وتغلغلت فيها، بينما انحصرت الأوبئة السابقة في مناطق جغرافية محددة.

التوصيات:

- نوصي المهتمين بالعلم بدعم جهود الباحثين للعمل على إخراج الكثير من المخطوطات الطبية للنور من خلال تحقيقها ونشرها.
- ارتداء المعدات الطبية للحماية الشخصية الأساسية للعاملين الصحيين، عند تعاملهم مع المرضى المصابين.
- اتباع الاحتياطات اللازمة للوقاية من الأمراض التي تنقلها المياه والغذاء والتي تؤثر بشكل مباشر على الصحة.

- مشاركة وزارة الصحة في اتخاذ القرارات الحاسمة ورسم السياسة العامة فيما يتعلق بصحة البيئة.
- مساهمة دائرة الطب الوقائي في إعداد وتنفيذ البرامج الهادفة إلى مكافحة الأمراض السارية على المستوى الوطني.

قائمة المصادر والمراجع:

-القران الكريم.

-العهد القديم.

المصادر:

-مصطفى، إبراهيم، واخرون، (د. ت)، **المعجم الوسيط**، ج1، تح: مجمع اللغة العربية، د.ن، د.م.

-ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، ت: 637هـ، (2006م)، **الكامل في التاريخ**، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت.

-ابن اصيبعة، موفق الدين ابي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، ت: 1203هـ، (1996م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج1، تحقيق: عامر النجار، دار المعارف، مصر.

-ابن اياس، محمد بن احمد، ت: 930هـ، (1975م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج1، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

-ابن بطوطة، أبو عبد الله اللواتي، ت: 1368هـ، (1981م)، **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**، تحقيق: علي منتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت.

-ابن حنبل، احمد بن محمد، ت: 241هـ، (2006م)، **المسند**، ج12، تحقيق: احمد محمد شاكر، رقم الحديث 15373، دار الحديث، مصر.

-الحنبلي، مجير الدين، ت: 927هـ، (1999م)، **الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مج2، تح: محمود عودة الكعابنة، مكتبة دنديس، الخليل.

-ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع، ت: 230هـ، (1968م)، **الطبقات الكبرى**، ج5، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

-الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود، ت: 819هـ، (1970م)، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، ج2، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة.

-العسقلاني، احمد بن حجر، ت: 852هـ، (1411هـ)، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تح: احمد عصام الكاتب، دار العاصمة، الرياض.

-ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت: 774هـ، (1990م)، **البداية والنهاية**، ج7، مكتبة المعارف، بيروت.

-المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، ت: 1061هـ، (1970م)، **السلوك في معرفة دول الملوك**، ج4، تحقيق: سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة.

-ابن يحيى، صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين، ت: 850هـ، (1967م)، **تاريخ بيروت وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت**، تحقيق: فرنسيس هوس اليسوعي، دار المشرق، بيروت.

المراجع:

-بركات، بشير عبد الغني، (1016م)، **تاريخ الكوارث في بيت المقدس**، دار المقتبس، بيروت.

-جوكتشة، حسين وزملاءه، (2016م)، **السلاطين الأوائل، عصر تأسيس الدولة العثمانية**، ترجمة: سمير عباس زهران، دار النيل، تركيا.

-أبو الحب، جليل، (1982م)، **الحشرات الناقلة للأمراض**، عالم المعرفة، الكويت.

-الدباغ، مصطفى مراد، (2006م)، **بلادنا فلسطين**، ج8، دار الهدى، باقة الغربية.

-الدويهي، اسطفان، (1976م)، **تاريخ الأزمنة**، نشره بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة، بيروت.

-روجرز، ماري اليزا، (2012م)، **الحياة في بيوت فلسطين (1855-1859)**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

-السباعي، مصطفى، (1998م)، **من روائع حضارتنا**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة.

-سعيد، حسن إبراهيم، (2008م) **يافا من الغزو النابليوني إلى حملة إبراهيم باشا (1799-1831م)**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام الله.

-صافي، خالد محمد، (2019م)، **الحكم المصري في فلسطين**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

-الصوري، وليم، (1992م)، **تاريخ الحروب الصليبية**، ج2، ترجمة حسني حبشي، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

-الطبابي، بلقاسم، (2014م)، **الموت في مصر والشام (1250-1517)**، ج1، الدار التونسية للكتاب، تونس.

-العكبري، عبيد الله بن محمد بن حمدان بن بطة، (1994م)، **الإبانة الكبرى**، ج4، دار الراية للنشر والتوزيع، بيروت.

-محسوب، محمد صبري، وزميله، (2000م)، **الأخطار والكوارث الطبيعية الحدث والمواجهة معالجة جغرافية**، دار الفكر العربي، القاهرة.

-هلون، معين، (2019م)، **المعجم التأثيلي للألفاظ الأعجمية في اللهجة الفلسطينية**، جامعة بيت لحم، بيت لحم.

-واتس، شلدون، (2010م)، **الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة الامبريالية**، ترجمة: أحمد عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، مصر.

الرسائل العلمية

-جبر، احمد عبد الرازق، **الطاعون الخطر القادم**، دراسة علمية، جامعة المنصورة، مصر.

-صلاح، محمد حمزة، (2009م)، **الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (491هـ/197م-923هـ/1517م)**، رسالة ماجستير، جامعة غزة الإسلامية، غزة.

-مبارك، حسن اشتيوي حسن، (2007)، **قطاع اللطرون (1948م-2007م)**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.

والمجلات والصحف والنشرات:

-الأسود، الحبيب، (2020)، **كورونا يفتح نافذة على تاريخ الحجر الصحي في وجه الأوبئة**، صحيفة العرب، العدد 11667.

-الجعفر، زين العابدين موسى، (2010م)، **وباء الطاعون في الإسلام واصابة المشهورون به حتى نهاية العصر الاموي**، مجلة جامعة كربلاء العلمية، مج8، ع1.

-رحيل، محمد فوزي، (2020م)، **الفرسان المجذومين- حين يكون المرض سلاحاً**- المجلة العربية، دار المجلة العربية للنشر والترجمة، العدد 522.

-سلامة، عبد الغني، (2020م)، **جائحة كورونا: الأداء الفلسطيني في مشهد عالمي متقلب**، مجلة سياسات، عدد 49-50، رام الله.

-الطراونة، مبارك محمد، (2010م)، **الأوبئة واثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الشراكسة**، المجلة الأردنية للتاريخ والاثار، عمان.

-فاضل، نصير بهجت، (2011م)، **الطواعين في صدر الإسلام والخلافة الاموية**، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العراق.

-منظمة الصحة العالمية، (2010م)، الدورة 126.

الكتب الأجنبية:

-Nadav Davidovitch and Zalman Greenberg, **Public Health, Culture, and Colonial Medicine, Smallpox and Variolation in Palestine during the British Mandate, Public Health Reports**, Vol, 122, no. 3, May-June, 2007.

-**Palestine and Transjordan Administration Reports 1918-1948**, Vol 13, 1945, London, Archive, 1955.

-Salam Abu Sitta, (2005), **Traces of Poison- Israel's Dark History Revealed**, Palestine Land society.

-Thomas chaplin, **The Fevers of Jerusalem, some Account of their Nature, Causes, and Teatment, as observed in the years 1861, 1862 and 1863, The lancet**, Vol, 84, issue, 2141, September, 10, 1846.

-Vicken V. **Kalbian, Reflectian on Malaria in Jeruslem, Jeruslem Qaurterly**, issue 67, Autumn, 2016.

مواقع الانترنت:

-The Nuclear Threat Initiative, (2017), Israel overview, www.nti.org

- Coronavirus disease (COVID-19): Similarities and differences with influenza, (2020).

https://www.who.int/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/question-and-answers-hub/q-a-detail/coronavirus-disease-covid-19-similarities-and-differences-with-influenza

-انفلونزا الخنازير، (2021)،

https://www.mayoclinic.org/ar/diseases-conditions/swine-flu/symptoms-causes/syc-20378103

-دولة فلسطين، وزارة الصحة، (2021)، http://www.moh.ps

-شريدة، عبد الستار، (2009)، الجدار والمستوطنات والخنازير البرية، آفاق، البيئة والتنمية، https://www.maan-ctr.org

-معاً، (2006)، قاضي قضاة فلسطين يصدر تعميماً يدعو فيه الجمهور الاستفادة من صندوق النفقة حسب احكام القانون، https://www.maannews.net/news/47381.html

-مركز الزيتونة، (2020)، تداعيات الكورونا في ظل الاحتلال الاسرائيلي

-World Health Organization, (2019)

WHO occupied Palestinian territory, Right to Health 2018.

-Report of the Director-General, The situation of workers of the occupied Arab territories, International Labour Conference, Geneva, 106th Session, 2017, https://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/—ed_norm/relconf/documents/meetingdocument/wcms_554441.pdf

-جبور، القس معين، **كنيسة القديس جورجيوس بفلسطين تسعى للسياحة العالمية**، موقع عربي 21، الاحد، 3 مايو/أيار 2015م.

-العقرباوي، (2020)، حمزة، **تاريخ الحجر الصحي في فلسطين**، موقع الترا فلسطين، https://tinyurl.com/tc2thy4

-الغول، عمر حلمي، (2020م)، خطيئة عطوان لا تُغتفر، الحياة الجديدة، رام الله.

http://www.alhayat-j.com/ar_page.php?id=53185b3y87131571Y53185b3

- **كتاب مفتوح من حزب التحرير في الأرض المباركة فلسطين إلى المفتي العام ودوائر الإفتاء والأئمة والخطباء**" المنشور في موقع المكتب الإعلامي لحزب التحرير في فلسطين، بتاريخ 12 أيار/ مايو 2020، في الرابط الإلكتروني التالي: https://tinyurl.com/y4kxpy4q

-المكتب الإعلامي لحزب التحرير، (2020)، بيان حزب التحرير **بعنوان**" جواب سؤال: تداعيات فيروس كورونا"، https://pal-tahrir.info

-قناة الجزيرة، (2020م)، **السياح يتقلصون في زمن كورونا.. بيت لحم الفلسطينية تعاني الركود**، https://www.aljazeera.net